العرب بين اللوبي الاسرائيلي ولوبي رأس المال في امريكا: قراءة نقدية* (2 من 2)

هناك حاجة للابتعاد عن تغذية الاوهام المتعلقة باللوبي اليهودي والتركيز على طبيعة المشروع الامريكي الامبريالي

غياب في اجندة نضالية.. والتحالف مع الاقليات المضطهدة.. كثرة في الاكاديميين وقلة معلومات عن الامريكيين العرب

مسعد عربيد *

ماذا عن اللوبي الحقيقي والاكثر خطورة؟

هناك العديد من القوى والعوامل التي تؤثر في صنع السياسة الخارجية الامريكية اضافة الى اللوبي الاسرائيلي ليس أقلها شأناً وخطورة منظمات وكنائس المسيحيين الاصوليين الصهيونيين. الا أن العامل الاكثر أهمية وتأثيراً في السياسة الخارجية الامريكية، والاكثر فتكاً بالشعوب المضطهدة، هو المجمع العسكري ـ الصناعي (م ع ص) صاحب MIC(Military-Industrial Complex) المصلحة الكبرى في دعم الحروب الامبريالية وعسكرة السياسة الخارجية الامريكية (اي ادارة السياسة الخارجية بواسطة آليات البنتاغون). وهو العامل الذي كثيراً ما يغيب النقاش حوله بين أوساط العرب والعرب الامريكيين وغيرهم من النشطاء والفاعلين في الحياة السياسية في الولايات المتحدة الامريكية. وليس غياب هذا النقاش، أو تغييبه، الاّ دليلا على الاحجام عن ارساء فهم معمق لأركان السياسة الخارجية ونزوعا مفزعا لتبسيط تعقيدات الواقع الامريكي. يتكون هذا المجمع من شبكة كبيرة من العلاقات السياسية والاقتصادية والبيروقراطية المتماسكة التي تقوم بين وزارة الدفاع الامريكية (البنتاغون) من جهة، ومتعهدي ومنتجي وشركات الاسلحة والذخيرة والصناعات الحربية من جهة أخرى، عبر تبادل الخدمات والخبرات والمعلومات والصفقات والتعاقدات. ويقف خلف هذه العلاقات عدد كبير من الخبراء والباحثين think tanksالذين يعملون في مراكز بحوث ودراسات متعددة تعج بها العاصمة الامريكية وغيرها من المدن الامريكية الهامة، وهؤلاء هم الذين يضعون آليات العمل ويصيغون استراتيجية شن الحروب ونظريات الحروب الاستباقية وغيرها من المفاهيم النظرية والايديولوجية. ويحتل عدد كبير من هؤلاء الخبراء والمستشارين مواقع حساسة في الادارات الامريكية المتعاقبة. كما يتميز هذا المجمع بعلاقات وطيدة ومتشابكة مع وسائل الاعلام والقوى الصهيونية والمراكز الاقتصادية والمالية في الولايات المتحدة. وتجدر الاشارة الى ان من بين عشرة من اكبر المؤسسات الاعلامية القومية نجد ان سبعة منها لديه مصالح مباشرة في صنع وتطوير الاسلحة ـ جنرال اليكتريك على سبيل المثال، وهي الشركة الأم لشبكة (ان بي سي) التلفزيونية.

بداية، سنورد بعض الملاحظات الوجيزة حول طبيعة ووظيفة وتأثير هذا المجمع:

ـ ذكرنا سابقاً أن السياسة الخارجية الامريكية، تشكل، في كثير من تجلياتها، انعكاساً للسياسات الداخلية المتبعة، كما اشرنا الى استئثار البنتاغون بحصة الأسد من الميزانية الفيدرالية الامريكية والمزاحمة الشديدة (بين الشركات والجهات المختلفة) على الفوز بتعاقدات وصفقات البنتاغون.

ـ تتعدد العوامل التي تقف خلف الاستراتيجية العسكرية للبنتاغون وتتشابك فيها الدوافع والمصالح. الا أن الآلة الحقيقية التي تدفع بالحروب الامبريالية الامريكية (كما هو حاصل في فلسطين والعراق وأفغانستان والسودان)، وتمثل المنتفع الاول والاكبر من تعاقدات البنتاغون هي المجمع العسكري الصناعي الذي يجني المليارات من شن هذه الحروب.

ـ لقد اكتمل تشكيل ونمو المجمع العسكري الصناعي في الولايات المتحدة على مدى عدة عقود وتبلور في بنية طبقية متماسكة تمثل مصالح اقتصادية هائلة، وامتلك التكنولوجيا المتطورة، كما طور آليات وشبكة من العلاقات والسياسات والبرامج تخدم هدفاً رئيسياً واحداً: اشعال فتيلة الحروب المستمرة والبحث عن مصادر جديدة من الاعداء وبؤر التوتر. أما الذريعة فقد كانت دوماً حماية المصالح القومية للولايات المتحدة ضد الاعداء الذين يتربصون بها واذا اقتضى الامر فلا ضير من اختراع اعداء دونكيشوتيين وهميين وابقاء شبح الحرب حاضراً أبداً. وقد تجلى هذا كله في أرقى اطواره بعد تهاوي القطب الاشتراكي وسقوط الانسانية بين فكي الهيمنة الرأسمالية الامريكية في عالم أحادي القطبية.

ـ يبحث هذا المجمع باستمرار عن بؤر التوتر السياسي والعسكري في العالم بغية شن حروب وحملات عسكرية عدوانية ضد الدول أو المناطق المستهدفة. أما خطورة هذا المجمع الحربي فتتجلى في الربط بين «الحرب والتسلح» من جهة و«المصالح القومية الامريكية» من جهة اخرى تحت غطاء شعارات تنطلي بسهولة على الشعب الامريكي وتتناغم مع المناخ السياسي العام (رسمياً ومؤسساتياً وشعبياً). كما انه يتحين في استهدافاته هذه وتوقيتها الظروف المحلية والدولية المواتية والتي تضمن مناخاً سياسياً ملائماً على الصعيدين الرسمي (الكونغرس والبيت الابيض والبنتاغون وغيرها من قوى المؤسسة الحاكمة) والشعبي (الشارع الامريكي وشتى القوى والتيارات والمنظمات السياسية) بحيث يتيقن من قبول المؤسسة الحاكمة لصفقاته وعروضه وتحاشي اي تذمر شعبي منها. كما يحرص على كسب رضى الشارع الامريكي والدعم الجماهيري وتحين الفرص التي تحول دون القيام باي جدل أو نقاش جدي لهذه الصفقات على المستوى الشعبي.

ـ البحث الدائم عن العدو: تكاثر «الاعداء» منذ الحرب الامبريالية الثانية من وجهة نظر المجمع المذكور، فكان «خطر التمدد الشيوعي» هو ذريعة الخمسينيات والستينيات من القرن المنصرم. وخلال «الحرب الباردة» أصبحت الذريعة «احتواء الخطر الاحمر» القادم من الاتحاد السوفييتي و«امبراطورية الشر» كما كان يحلو للرئيس الامريكي الاسبق ريغان أن يسميها. ولذلك شكل انهيار الاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي في اوروبا الشرقية، واختفاؤه كبؤرة توتر، أكبر تهديد لمصالح التجمع العسكري الصناعي، فكان لا بد من استمرار البحث المهووس عن اعداء وبؤر توتر جديدة وان كانت وهمية ومخترعة، فحلت الدول الشريرة rogue states(كما وصفوا العراق وايران وكوريا الشمالية) محل «الخطر الشيوعي» وأخذت هذه الدول تشكل خطراً على الامن القومي والمصالح القومية الامريكية. استمر الحال على هذا المنوال حتى حلت أحداث الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) 2001 والتي استخدمتها الادارة الامريكية كذريعة لاحياء عسكرة المناخ الشعبي والسياسي في الولايات المتحدة وخارجها. وتزامن ذلك الوهم مع الاطلالة على ما يسمى بالخطر الاسلامي، الذي نظّر له المؤلف اليهودي برنارد لويس، وهو الذي يحظى باصغاء اركان الادارة الامريكية الحالية والمحافظين الجدد كذلك، بالتوازي مع «التنبيهات» المتكررة لهنري كيسنجر لتلك الظاهرة المصطنعة رامين بذلك الى شن حملة لا متناهية ضد الارث والتراث الاسلامي بكل تشعباته في بلادنا.

ـ تنامت سطوة الشركات الكبرى المنتفعة من الحروب وتضاعفت قوتها وراكمت ارباحاً هائلة أعادت استثمار بعضها في تطوير واستحداث مراكز الابحاث والدراسات ولفيف المثقفين ، وتطوير القدرات والمهارات التقنية والسياسية، وبناء شبكة من العلاقات المعقدة والوطيدة مع اركان صناع القرار السياسي من مسؤولي وزارة الدفاع ومجلس الامن القومي ووزارة الخارجية والبيت الابيض واللجان المختصة في الكونغرس الامريكي (لشؤون السياسة الخارجية والدفاع والتسلح ...وغيرها)، وتسنى لها اثارة العديد من التوترات الدولية والاقليمية في العالم. وبالاضافة لسطوة هذا المجمع، فان هذه العلاقة المتبادلة تفسر الى حد كبير كيف استطاعت الادارة الامريكية (بفضل تأثير وخدمات وزارة الدفاع والمجمع العسكري الصناعي) ان تستثمر أحداث 11 ايلول (سبتمبر) 2001 لشن حرب لا نهاية لها على «الارهاب» وأن تنتهج استراتيجية الهجوم الاستباقي وتغيير الانظمة في الدول التي صنفتها واشنطن ضمن «محور الشر».

ـ خصخصة الحروب: يتميز (م ع ص) في سياق تطور النظام الرأسمالي في الولايات المتحدة والامبريالية الامريكية، وبالمقارنة مع سابقاتها من القوى الكولونيالية، بخصخصة الصناعات الحربية للافلات من سيطرة ورقابة اجهزة الدولة المركزية. ففي حين بقيت صناعة الاسلحة والذخيرة في ظل الحقبتين الامبريالية والكولونيالية تحت سيطرة ورقابة الدولة، فان الامر مختلف تماماً في حالة العولمة الرأسمالية الامريكية حيث أصبحت الصناعات الحربية والعسكرية ملكية خاصة للشركات الكبرى تخضع لمقتضيات واملاءات السوق «الحرة» وتراكم الربح. أي ان الصناعات الحربية انتقلت من انتاج تتحكم به الدولة الى صناعة تأتمر بقوانين السوق والربح والعرض والطلب، وتخضع لقرارات شركات رأسمالية خاصة. وبقول آخر، من المنظور الاقتصادي، في حين كان «الانتاج» القومي الحربي يخضع لقرارات عسكرية وضرورات الحرب والسلم، أصبح في ظل العولمة الرأسمالية الراهنة مدفوعاً بالقوى الفاعلة في السوق الرأسمالية.

ـ العالم ... ساحة حرب: أفرزت «نظرية بوش في الحرب الاستباقية» و«الحرب على الارهاب» العالم كله بأنه ساحة حرب. فالارهاب في كل مكان ويتخبئ في كل الازقة متربصاً بأمريكا وحريتها وديمقراطيتها. والارهابيون «يكرهون» امريكا فلا بد، اذن، من التصدي لهم في كل «زمان» و«مكان» بل لا بد من «استباق» غدرهم وعدوانهم على امريكا. وهكذا أصبح العالم كله ساحة حرب مفتوحة ضد «الارهاب» وأصبحت البشرية «هدفاً» عسكريا اذا اقتضى الامر أو ساورت امريكا الشكوك بهذا البلد أو ذاك.

ـ أعلن الرئيس بوش ان بلاده ستتخلى عن استراتيجية الحرب الباردة (والتي تفترض تواجد ترسانة عسكرية تقليدية تشمل الدبابات والطائرات الحربية والصواريخ والسفن وحاملات الطائرات...الخ) مؤكداً ان ادارته ستتبنى اعطاء الاولوية للتقنية المتطورة hi tech(القنابل الذكية، المعدات الحربية الليلية، المراصد الجوية، الوحدات الخفيفة والسريعة الحركة والتنقل، والقنابل النووية). ويعتبر هذا بمثابة «ثورة في السياسة العسكرية»، أما الترجمة الفعلية لهذا فهي تخصيص مئات المليارات الاضافية للشؤون العسكرية من ابحاث علمية ومعدات تكنولوجية متطورة، ومن ثم التوجه نحو الانتاج والتسويق.(14)

اسرائيل في استراتيجية المجمع العسكري الصناعي

يحتل الشرق الاوسط، كما اسرائيل، موقعاً مركزياً في استراتيجية وبرامج (م ع ص) حيث تكتنز هذه المنطقة «بالذرائع» التي يستخدمها هذا المجمع لتمويه مصالحه تحت غطاء «حماية اسرئيل والشعب اليهودي»(15) ولاهمية النفط ومخزونه في عجلة الاقتصاد الامريكي والعالمي وضمان استمرارية ضخه وتوارده الى الغرب. الا انه يجدر بنا، بالاضافة الى أهمية النفط ودوره في السياسات الامبريالية في المنطقة وفي احتلال العراق بالذات، الالتفات الى استغلال البنتاغون (ومن ورائه شركات الاسلحة والذخيرة والصناعات الحربية) لهذه المسألة من أجل ابتزاز المزيد من مخصصات الميزانية الفيدرالية الامريكية (على حساب الخدمات الاجتماعية المتناقصة باستمرار). ففي مقابل كل دولار واحد من ايرادات النفط المستورد من بلدان الخليج العربي، فان البنتاغون يعتصر لنفسه خمسة دولارات من الميزانية الفيدرالية الامريكية من أجل «ضمانة» واستمرار تدفق النفط16.

وتحتل اسرائيل، وما تعيثه في المنطقة العربية من حروب وتوتر مستمر، مصدراً اساسياً في استراتيجية المجمع العسكري الصناعي، حيث يترجم الدعم العسكري لاسرائيل الى صفقات كبيرة وأرباح هائلة لهذا المجمع ويوفر العمالة للآلاف من العمال الامريكيين بحيث يصبح في حقيقة الامر شكلاً من أشكال الدعم الحكومي subsidiary لشركات صناعة الاسلحة والذخيرة. بالاضافة الى ذلك فان الدعم العسكري لاسرائيل يفتح سوقاً جديدة أمام هذه الشركات حيث تهرع الانظمة العربية الى «مزاحمة» اسرائيل متوسلة لدى الحكومة الامريكية من أجل منحها صفقات جديدة لشراء أسلحة وطيّارات حربية. ومن أجل ضمانة هذه الارباح والصفقات، يقدم هذا المجمع ملايين الدولارات كتبرعات سياسية لكل دورة انتخابية للكونغرس.

النتائج المباشرة لمنطق هيمنة اللوبي الاسرائيلي

يمكننا ايجاز نتائج مقولة هيمنة اللوبي الاسرائيلي على النحو التالي:

ـ جنح مؤيدي الفكرة الى التبسيط غير العلمي وتحميل اللوبي الاسرائيلي كل اللوم في حين تبرأ ذمة رأس المال والامبريالية الامريكية بطبيعتها العدوانية ويعفيها من كافة مسؤولياتها.

ـ هكذا يخفق انصار ذلك المنطق في تحديد دقيق لطبيعة العدو أو معسكر الاعداء ومكوناته، «فلولا وجود اسرائيل لكانت امريكا صديقة للعرب والفلسطينيين،» او هكذا يدعون.

أما على مستوى النشطاء السياسيين ومجمل العمل السياسي للجالية العربية في الساحة الامريكية، فيمكن ايجاز نتائج مثل هذه التبسيط المتعمد لقضايا في غاية التشابك والتعقيد بالنقاط التالية:

1) اراحة النشطاء من العرب الامريكيين من واجب مناهضة النظام والسياسات العدوانية الامريكية كما ورد في دعواتهم منذ ثمانينات القرن الماضي: دعونا نركز على أولوياتنا أي أن نحصر العمل السياسي للعرب الامريكيين في الانخراط في اطار ما أسموه «بالعملية السياسية» والعمل من خلال أطر النظام القائم واحزابه.

ولعل في هذا ما يفسر اغراءات مقولة هيمنة اللوبي الاسرائيلي والاقبال عليها وسرعة انتشارها بين العرب الامريكيين حيث أنها تلغي عمليا مهام وضرورة النضال ضد السياسات الامبريالية والرأسمالية ومناهضتها سواء في بلادنا أو في امريكا اللاتينية أو العالم الثالث بشكل عام. ويقف هذا، دون ان يكون السبب الوحيد، وراء حالة التراخي واللامبالاة المريعة لنشطائنا ولجالياتنا حيال قضايا ونضالات الداخل الامريكي وقضايا الشعوب والاقليات الاثنية الاخرى (المكسيك، كوبا، فنزويلا، نيبال... وغيرها).

2) تغذية الاوهام الزائفة حول حقيقة وطبيعة السياسة الامريكية في بلادنا والترويج بانها صديقة لشعوبنا وكل ما هو مطلوب منا هو مناهضة اللوبي وازالة آثاره وخلق لوبي عربي نظير وهذا لن يتم الا من خلال انخراطنا في العملية السياسية «لترجيح كفة الميزان».

3) يفتح هذا بدوره الباب على مصراعيه أمام النشطاء والمنظمات في اقامة «الدكاكين» السياسية التي سادت أنشطة الجالية عبر العقود الثلاثة الاخيرة، وهي التي فشلت في استنهاض الجالية العربية بل عملت على قولبة عملها في أطر متناغمة مع وتيرة الحياة السياسية الامريكية (من حيث اساليب ووسائل التمويل وغيرها من أوجه العمل السياسي والاجتماعي والثقافي للعرب الامريكيين.)

ولعله من أخطر الاوهام التي عششت فينا لسنوات، ما مثلته بعض الانشطة والتحركات التي تلوح في الافق بين الفينة والاخرى، والتي يقوم بها بعض التجار والسماسرة ورجال الاعمال مدّعين السعي وراء تعزيز العلاقات التجارية والاقتصادية وتوطيد العلاقة بين رجال الاعمال العرب والامريكيين كوسيلة لتحقيق التقارب بين العرب والشعب الامريكي وايصال الحقيقة الى الرأي العام الامريكي لـ«توعيته» وجذبه لنصرة القضايا العربية كي «يؤثر» على قرارات حكومته و«تصويب» سياساتها المجحفة بحق العرب والفلسطينيين وقضاياهم العادلة. تأتي هذه المساعي في سياق محاولات تشكيل «لوبي عربي» يدعي أصحابه أنه سيتصدى للوبي الاسرائيلي. وغني عن القول ان كل هذه المحاولات لم تنجز سوى خدمة أصحابها والقائمين عليها وربما اثراء بعضهم، أما الجالية العربية في الولايات المتحدة فلم تحصد منها، على مدى عقود ثلاثة، سوى المزيد من الاوهام والاحباط والضياع18.

4) تستند مقولة هيمنة اللوبي على القرار الامريكي الى مفاهيم مغلوطة وقاصرة في فهم طبيعة الطبقة الحاكمة في الولايات المتحدة، وكذلك العلاقة بين هذه الطبقة والشركات الكبرى رغم توفر الادلة على العلاقة الوثيقة بينهما (العراق وفلسطين ولبنان وفي كافة أرجاء الكرة الارضية)، الامر الذي يؤدي الى الضياع في المعركة السياسية الامريكية والى ما يشبه العمى السياسي والايديولوجي.

5) تغييب وطمس البعد الرأسمالي ـ الامبريالي في السياسة الامريكية وبالتالي اسقاط برامج النضال ضدها.

6) ينبغي الاشارة الى ان المحرك والمستفيد الاساسي لذلك الفهم القاصر هو رأس المال النفطي العربي وما يمثله من تجليات، اذ تتصاعد الدعوة لـ «بناء» لوبي عربي مع اشتداد الحملة الامريكية لاستهداف اركان وكلاء النفط العرب، خاصة في الجزيرة العربية والسعودية تحديدا. وما جاءت به صفقة طائرات «الاواكس» المتطورة في بداية عقد الثمانينيات من القرن المنصرم سوى مؤشر على كيفية استدراج الفائض في العائدات النفطية و«استثمارها» في مشاريع لا تخدم سوى الشريحة الحاكمة في منطقتنا. أما نتيجة ذاك الهدر فكانت اندثار «اللوبي» بعد استنفاذ الغرض منه ولكون قراره عائداً لاعتبارات عشائرية حاكمة وليست لاعتبارات موضوعية واحتياجات تعود بالفائدة على مجمل الشعوب العربية.

ان سعي البعض لدس الاوهام بان السياسات الامريكية المتبعة نابعة من مجرد تأثيرات «اللوبي الاسرائيلي» واملاءاته على السياسة الامريكية بعيداً عن حاجة المصالح الامريكية الامبريالية لأمر مدمر، ويحرف وجهة المعركة ويضعها مع هذا اللوبي وليس مع المصالح الامريكية الكونية. ولا يخفى ما يتضمنه هذا الاستنتاج الكارثي من عواقب وخيمة.

أجندة نضالية؟

ماذا لو أقرّ العرب والعرب الامريكيون بان المشكلة الجذرية في السياسة الخارجية الامريكية هي حماية المصالح الرأسمالية الامبريالية الامريكية (نهب موارد وثروات الشعوب وتغذية أرباح رأس المال...)؟

لا شك ان هذا المنطق سيؤدي بهم في نهاية المطاف الى مجموعة من الاستنتاجات، أقل ما يقال أنها «غير مريحة» وتتطلب أجندة نضالية طالما تجنبوا خوض النقاش بشأنها، وما زالوا، كما تتطلب الانخراط في تأسيس فهم معمق حول أسباب ودوافع ومصالح السياسة الخارجية الامريكية:

1) فعلى المستوى الداخلي سيتوجب علينا الاقرار باننا نواجه نظاماً رأسمالياً استغلالياً، مما يستلزم لفتة جديدة الى كافة المشاكل الداخلية (والتي قد تبدأ بالمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والتمييز العنصري والاثني والتهميش الاجتماعي للفقراء والملونين والتمييز ضد المرأة وقمع واضطهاد العمال المهاجرين، وربما لا تنتهي عند أزمات الفقر والتعليم والرعاية الصحية وغيرها من الازمات المحتدمة في المجتمع الامريكي).

2) كما سيتوجب عليهم، على مستوى السياسة الخارجية، الاقرار باننا أمام سياسة امبريالية معادية للشعوب لم تبدأ بالعراق وفلسطين ولن تتوقف عندهما، بل تنبسط على مناطق أخرى من العالم وعلى مدى قرن من الزمن (الحظيرة الخلفية لامريكا) امريكا الوسطى والجنوبية، (كوبا، الكاريبي، جنوب شرقي آسيا وغيرها).

3) سيصبح مطلوباً، في الخطوة اللاحقة، اتخاذ موقف (بناء أجندة نضالية) مناهض لهذه السياسات والنضال ضدها.

4) اقامة التحالفات وبناء جسور النضال المشترك مع الآخرين:

أ) من قوى وفئات اجتماعية واثنية مضطهدة ومظلومة (السود الامريكيين والقادمين من امريكا اللاتينية، ومن يطلق عليهم صفة الملونين people of color ، والفقراء من البيض، والمرأة وغيرهم من شرائح وقوى تعاني من كافة أشكال التهميش الاجتماعي والسياسي).

ب) الحركات المناهضة للامبريالية والرأسمالية والعولمة والتي تنشط في الداخل الامريكي وتشمل طيفاً عريضاً من المنظمات التقدمية واليسارية والاشتراكية وغيرها من القوى الاثنية التي تعارض السياسة الخارجية الامريكية في العالم وفي بلادها الاصلية (مثل بلدان امريكا الوسطى والجنوبية).

جدلية النضال والنضال المشترك

ينقلنا هذا الى اشكالية اخرى، قلما يدور الحوار حولها، وهي: هل يميل أو يرغب العرب الامريكيون في خوض مثل هذا النضال أو اقامة مثل هذا التعاون والتحالف مع الآخرين وخوض النضال المشترك معهم؟

يمكن ايجاز اجتهادنا في هذه المسألة على النحو التالي: ليس في الواقع الراهن للجالية العربية في المهجر الامريكي (حتى بعد أن اصبحت مستهدفة منذ ايلول/سبتمبر 2001) ولا في تجربتها عبر العقود السابقة، ما يشير أو ينم عن مثل هذه الرغبة في خوض مثل هذا النضال أو اقامة روابط التعاون او التحالف مع الاثنيات والشرائح الاخرى في المجتمع الامريكي ولا في التعاطي مع قضايا هذه الشرائح سواء كانت قضايا اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو خليطاً من هذا كله. قد يحاجج البعض أن هذا التعميم يفتقر الى الدليل العلمي والموضوعي. وهذا صحيح، اذ ان البحث الجاد في هذه الامور لم يتوفر بعد. وعليه، فهذا الاجتهاد خلاصة لمشاهدات وتجربة كاتب هذه السطور ومعايشته لاوضاع الجالية العربية منذ ثمانينات القرن الماضي. ولعل نقص الدليل (البحث) العلمي بحد ذاته ليس الا تعبيراً عن غياب الجدل العام والتحليل العلمي لهذه الظواهر.

فعلى الرغم من وفرة الاكاديميين العرب في الجامعات ومراكز الابحاث الامريكية، الاّ انه تندر الابحاث التي تعالج قضايا العرب الامريكيين. أما المعلومات المتوفرة فتظل في أغلبيتها ذات طبيعة احصائية واستفتائية. وعليه، فان أخطر ما في الامر هو غياب الجدل على مستوى الجالية ـ أفراداً ومنظمات ونوادي وجمعيات وصحافة وكتاباً ومفكرين ونشطاء وأكاديميين ـ بحيث يخيل للمرء ان هذه المواضيع «مؤجلة» حتى اشعار آخر. بل ويشكل غياب مركز مرجعي او مرجعيات فكرية وقيادية للجالية عنصرا اساسيا في الحؤول دون التوصل لارساء قواعد وعي ومفاهيم عامة لآليات السياسة الامريكية وكيفية مواجهتها، والبحث العلني في دور الجاليات في دعم برامج التطور والتنمية في الوطن الام. وفي هذا السياق ينبغي رؤية دور رأس المال النفطي (والسعودي بشكل خاص) في تهميش الارهاصات الاجتماعية واستدراجها حين اكتمال بنيانها بالتلويح بالمزايا المادية ان تماثلت مع برامج واهداف الشرائح النفطية. وما تجربة «المنظمة الامريكية العربية لمناهضة التمييز ADC» الا شاهدا على ذلك خاصة بعد «قرار» الممول النفطي الوليد بن طلال بضخ نحو ستة ملايين دولار في ميزانية تلك المؤسسة التي ابتعدت كثيرا عن اهدافها الاصلية.

محاولة في فهم الاسباب

نسارع الى القول بان هذا الاجتهاد قد يتضمن بعض التعميم والتجاهل لخصوصيات الجالية العربية الامريكية، كما انه قد لا ينصف بعض النشطاء العرب الذين ناضلوا، وما زالوا، دون كلل وعملوا من أجل اقامة مثل هذه التحالفات. وكي لا نزج هذه المقالة في أسباب وتشعبات هذه المسألة، على أهميتها، فاننا نكتفي بالتلميح لبعض الابعاد التي لا تنفرد بها جاليتنا بل هي سمات عامة ومشتركة للكثير من الجاليات المهاجرة والمغتربة:

ـ مضى على قدوم العرب الى القارة الامريكية الشمالية (الموجة الاولى في أواخر القرن التاسع عشر) ما ينوف عن 130 عاماً وخصوصاً من البلدان التي كانت واقعة تحت الاحتلال التركي، كما انقضى الدهر نفسه منذ أن أخذ العرب في امريكا الشمالية «ينظمون» أنفسهم (1892) في منظمات وجمعيات وأنشطة ثقافية وصحافية.

نقف اذن أمام حالة مهجرية متعددة الابعاد، معقدة النسيج، متباينة الخلفيات (الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية والدينية) امتدت عقوداً طويلة، وأمام تشكيلة اثنية ـ قومية ـ ثقافية ـ اجتماعية تبلورت عبر عقود من العيش في «الوطن الجديد» وعايشت أجيالاً متعددة وشملت مغتربين قدموا في موجات هجرة متلاحقة تدفعهم في ذلك أسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية متباينة، مغتربين حملوا معهم أحلاماً وطموحات تفاوتت بين الهروب من قسوة الفقر وظروف القمع والتمييز أحياناً، الى السعي وراء لقمة العيش الكريم، والى الاثراء أحياناً أخرى. الا اننا رغم هذه التجارب الانسانية المفعمة بالمعاناة كما بالانجازات والمكتنزة بالخبرات والعبر، لم نوفق الى يومنا هذا في تشجيع واقامة جدل مفتوح حول المعضلات والتحديات التي تواجه حاضرنا ومستقبلنا ومستقبل أبنائنا وأحفادنا.

ـ يجدر بنا التطرق، ولو تلميحاً، الى اننا قدمنا من مجتمعات وثقافات لا تحمل بين ثناياها قيم العمل الجمعي ولا تعزز التضامن مع الآخرين، بل قدمت الاغلبية من مجتمعات وثقافات منغلقة تعزز التمركز على الذات ووقايتها من «كل شر وأذى»، وتخشى الانفتاح وتحاذر الثقة بالآخرين، كما حملت معها ارث ثقافة ومجتمعات متخلفة خيّم عليها لقرون عديدة شبح الاحتلال التركي الذي عرف بتعفنه ووحشيته.

ـ ساد بين العرب الامريكيين ولعقود طويلة وهمٌ بانهم بقدومهم الى المهجر الامريكي قد وطئوا ما يسمى أرض الحليب والعسل The land of milk and honey وعليه فالهم الاساسي، بعد تأمين لقمة العيش، هو تحقيق الثراء الفردي والازدهار حتى ولو كان ذلك على حساب المجموع والقضايا الوطنية (والمقصود به غالباً الازدهار المالي والذي كثيراً ما انتهى الى افقار نفسي واجتماعي وروحاني وثقافي والى فقدان الهوية والانتماء).

ـ تسرب الى وعينا، (وربما بسبب النفسية والعقلية الانكفائية والمنغلقة على الذات والتي حملناها من اوطاننا الاصلية)، أن السبيل الى النجاح والازدهار هو «الابتعاد عن السياسة» والمصلحة الجمعية والشأن العام والعمل على التكيف والانصهار في المجتمع الجديد. ورغم مرور اجيال عدة من المغتربين العرب في الولايات المتحدة، فما زلنا نلحظ ان الكثير من العرب الامريكيين لا ينظرون الى أنفسهم كشريحة اثنية متجانسة وملتحمة مع الشرائح الاخرى التي تشكل بمجموعها النسيج الاجتماعي (الكل الجمعي collective) في الولايات المتحدة والذي يتميز أكثر من أي مجتمع آخر بالتعددية الاثنية والعرقية والثقافية.

ـ باستثناء القلة، فان اغلبية المغتربين العرب قد فهمت «الانصهار» في المجتمع الامريكي كاندماج في «مجتمع اوروبي أبيض» متبنية في ذلك الطبعة والسرد الثقافي للرجل الابيض والمفاهيم الاثنية البيضاء السائدة والمتوافقة مع الطبقة الحاكمة، ومتناسية أو متجاهلة التعددية الاثنية والعرقية والثقافية المكونة للمجتمع الامريكي. وقد اختار هؤلاء، وللسبب ذاته، موقف «الحياد» تجاه القضايا الاجتماعية والسياسية المحتدمة في المجتمع الامريكي، ذلك الحياد الذي يعنى التوافق والتماهي مع المواقف والثقافة والمفاهيم والقيم السائدة. نحن، اذن، أمام حالة مهجرية استدخلت، الى حد بعيد، «الطبعة» والنمط الامريكي من المركزانية الاوروبية. وبكلمات اخرى، في حين يطالب «الاندماجيون» بالانصهار في النسيج الاجتماعي الامريكي، فانهم يتحاشون الوقوف أمام مسؤولياتهم حيال هذا المجتمع وأزماته واشكالياته. فهو، كما يريدونه، انصهار احادي الطرف ننتمي الى المجتمع حين ينعم علينا هذا الاخير بالمنفعة ويحقق المصلحة، ونهرب بعيداً حين تلم بالمجتمع المحن والازمات.

تعزز هذه المفارقة المؤلمة ما ذهبنا اليه من أن جاليتنا تقف على «قارعة الطريق» فيما يتعلق باجندة النضال في المجتمع الامريكي. ولا تنفرد الجالية العربية لوحدها في هذا المجال، بل هناك غيرها العديد من الاثنيات التي تعاني من الاشكاليات نفسها، انما نخص الجالية العربية هنا لانها موضوع بحثنا.

ـ تستند الجالية العربية في الولايات المتحدة في هذه الثقافة الى نهج مريح وينسجم مع منابع وخلفيات تكوينها السياسي والثقافي:

(أ) الخطاب العربي الذي ساد القرن العشرين وحتى يومنا هذا، والذي يرتكز الى ثقافة سياسية وعامة تتحاشى تحديد العدو بدقة وتعفينا من مغبة مواجهته وتجنبنا الآلام والتضحيات الناجمة عن ذلك.

(ب) ثقافة وسياسة لا تخلو من عقدة العجز والدونية أمام المركزانية الاوروبية وتتمثل، في سياق هذا النقاش، في اعفاء الغرب من مسؤولياته وعواقب الاحتلال والاستيطان الذي مارسه ضد شعوبنا وشعوب العالم .

(ج) نتاج ما استدخلناه من وعي مشوه صاغته القوى الكولونيالية عبر حقبة الاستعمار وأسست لاستمراره بعد جلاء قواتها العسكرية تاركة خلفها من ارث ومؤسسات وثقافة ما يضمن استدامة تشويه الوعي وتدميره.

ـ أضحى العرب والمسلمون في امريكا مستهدفين في مناخ ما بعد أحداث الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) 2001 التي القت بثقلها على أوضاعهم وشاع بينهم مناخ الخوف والرعب والقمع، مما دفع بهم الى المزيد من السلبية والانكفاء على الذات في حين كان الاولى بهم التكاتف فيما بينهم ومع الاقليات الاثنية والفئات التقدمية في المجتمع الامريكي (والتي أبدى الكثيرون منهم تعاطفاً وتضامناً لم نوفق في احتضانه وتطويره) وتوطيد أواصر التعاون والنضال المشترك معها.

وكي لا يبدو تقييمنا هذا وكأنه جلد للذات، لا بد من التذكير ببعض الصعوبات الموضوعية التي تعيق عمل الجالية العربية في الولايات المتحدة وأهمها:

ـ يبقى العرب، مهما كان تصورهم، ومن منظور المركزانية الاوروبية اثنية غير اوروبية وغير بيضاء تقيم وتعمل وتنشط في مجتمع اوروبي أبيض دون أن يعني «قبوله» بها. فهناك سعي حثيث ومنظم لاقصاء العرب الامريكيين عن الحياة السياسية الامريكية والابقاء على تهميشهم وتحييد تأثيرهم رغم جهود الكثيرين منهم وانخراطهم ومساهماتهم في شتى مرافق الحياة الامريكية. ودون مزيد من الاستفاضة، نكتفي بالقول بان هناك العديد من الابعاد والعوامل، من ثقافية ودينية وثقافية ومركزانية اوروبية وعنصرية، تتشابك في هذا الجهد المنظم.

ـ يزيد الخلط بين الجاليات المسلمة والمسلمين الامريكيين وقضاياهم ودورهم من جهة وبين العرب الامريكيين من جهة اخرى، من تعقيد أوضاع الجالية العربية وادائها.

ـ أخطار «اللوبي الامريكي» في الوطن العربي: ونقصد بهذا ذلك الجيش من المؤسسات والمنظمات السياسية والثقافية تحت مسميات «غير الحكومية» وغيرها وتلك الجوقة من المثقفين الذين يشكلون «لوبيا امريكيا» في الوطن العربي يروج للسياسات الامريكية ويخلق لها المبررات والذرائع ويسوق لاهدافها ومصالحها ويعمل عبر أدواته المشبوهة على «تلميع» مخططاتها لشعوبنا وشعوب العالم.

الخاتمة

يتم النضال ضد اللوبي الاسرائيلي في الولايات المتحدة، ضمن سياق الجدل الذي أثرناه في هذه السطور، على الاسس التالية:

ـ تبقى الغاية الرئيسية للسياسة الامبريالية الامريكية تعزيز المصالح الرأسمالية وهيمنة الامبراطورية ويبقى دعمها لاسرائيل مهما بلغت حدوده وارقامه ضمن سقف هذه المصلحة.

ـ يقوم نضالنا ونشاطنا اساساً على فهم المصالح والسياسات والاستراتيجية الامريكية (والتي يقوم اللوبي في خدمتها) وان يتوجه نحو مناهضتها. والى ان نقيم مفاهيمنا على اسس صحيحة فسوف نخطئ الهدف ونفشل في رسم التكتيكات ونستمر في حراثة البحر ونشغل انفسنا برؤية الشجرة في حين نتعامى عن رؤية الغابة خلفها.

ـ ان رصد وتوثيق عمل اللوبي من أجل تعريته ونقده ومناهضته مهمة تقع على كاهل العرب والعرب الامريكيين ولكنها أيضاً واجب ومسؤولية كافة الامريكيين التقدميين والمعادين للرأسمالية والامبريالية أفراداً ومنظمات ومؤسسات، وهي مهمة هامة وعاجلة.

ـ الا أن هذه المهمة لا تنفصل عن النضال ضد الامبريالية والرأسمالية والعولمة والعدوانية، كما أنها لا تقتصر على فلسطين والعراق وحدهما، بل هي جزء من النضال الاممي ضد الامبريالية والرأسمالية في كل مكان والذي يسير جنباً الى جنب مع نضال الداخل الامريكي من أجل الحفاظ وتعزيز الحقوق والحريات المدنية والدستورية والاكاديمية وتحقيق المطالب الاجتماعية والاقتصادية (توفير الخدمات الاجتماعية مثل التعليم والرعاية الصحية والاسكان، مناهضة الفقر والتمييز العنصري والتمييز ضد المرأة ... وغيرها من أزمات المجتم